

المغرب كما يراه الشرق العربي

مجلة « المغرب » الشهرية لمحمد صالح ميسة : السنة الثالثة - عدد أكتوبر 1934 -

رجب 1353

حديث ألقى بالنادي الأدبي السلوي سنة 1934

قد نعرف نحن المغاربة بلادنا ونعرف وضعيتنا الاجتماعية وما لدينا من مظاهر المدنية القديمة والحديثة، ولكننا لا نعرف شيئاً كثيراً عما يقال عنا في الخارج، إذ أن هناك حقيقة جلية هي أننا مجهولون في العالم الإنساني، وأنا خارج المغرب جماعة من أناس تتضارب فيهم الآراء وتتباين إلى حد بعيد، فننعت بأحسن الصفات وأرذلها، ويجول بنا الخيال هناك جولات لا يكون لها في الغالب أدنى صدفة للصواب والواقع، فالمغرب بلادنا كما نعلم عبارة عن شبه جزيرة إذ يحيط بها البحر من جانبيين والصحراء الكبرى من جانب ثالث، فنحن في كل أدوار تاريخنا نمثل وحدة تامة وعزلة إذ لم نمتزج امتزاجاً حقيقياً إلا بأمم الشمال الإفريقي وهي أُمم تصورنا في كل مظاهر الحياة، فنحن من الشعوب التي حافظت على وحدتها وصفاتها في مختلف أزمان التاريخ.

ونحن كما كنا في عصر الجمال وسفن القلاع، لا نتصل بأمم الشرق العربي إلا بمقدار، كذلك اليوم ونحن في عصر الآلات البخارية والمواصلات السريعة، غزتنا صحف الشرق العربي ومطبوعاته، فأمسينا بعد أمد قصير نعرف جزئيات عن مصر وسوريا وفلسطين والعراق ربما لا يعرفها أبناء تلك البلدان، ولكن هذا الاتصال وهذا التعارف هو من جانب واحد لا غير، فهم بمقدار ما نعرف عن بلادهم وتتابع من أخبارهم، وتتجادل في شؤونهم، يجهلون كل شيء عنا، ولا يتحدثون عن أحوالنا، إلا ظناً وخيالاً، كأننا في جزيرة

مملوءة بالسحرة لا توجد إلا في خيال روائي، تتراءى له كلما خلا إلى نفسه، وتابع خيالاته، فإذا بالروائي يصفها تارة بأوصاف تنجذب إليها النفس، وطورا بأوصاف تخيف وترعب.

وما تاريخ بلادنا في نظر هؤلاء الإخوان الشرقيين إلا عبارة عن حروب قبائل يغير بعضها على بعض، وثورات متواصلة، بل هو تاريخ تلك الجماعات التي لم تخرج من عصر القبيلة والعشيرة إلى عصر المدنية والوطن والجماعة، والتي لم يخرج نظامها من البساطة إلى التركيب، ومن دور الزعامة الفطرية إلى دور الملك الشامخ.

ولكن ما لي أشاء أن أعيب على إخواننا الشرقيين ولا ألوم أنفسنا ما دمنا في جزيرتنا لا نعمل ولو جزءا طفيفا لنوضح لهؤلاء الإخوان الذين تربطنا بهم روابط الدين واللغة حالتنا، وأية درجة وصلناها في عالم الحضارة، فهم ربطونا بهم بما يصدر عن إلينا كل يوم مما تخرجه مطابعمهم، أما نحن الآن فتهاون بكل شيء ولا نعبأ بشيء ولا نرى للدعاية من فائدة بل إن كثيرا منا يراها ثثرة لسان.

وسوف لا أطيل الحديث عن تحديد مسؤوليات ومناقشة نظريات، وإنما سأوضح صورة رأيها ولستها، تكونت تكويننا متزنا خلال سنوات أربع، ولكم بعد ذلك مجال الرد ومجال الفصل، فحسبي الآن أن أبلغ تلك الصورة وأن أذيعها في وسط كوسطننا، لا يعترف - كما قلت - بالدعاية ولا يعمل لها، ثم على بعد ذلك أن أصمت ريثما أرى أثر ذلك.

فلنضع لأجسامنا أجنحة ثم نطير - وهذا لم يمس بفضل العلم من المستحيلات - إلى أن تراءى لنا مصر أو الشام أو العراق، فنجتو على صحرة سحرية في الفضاء ترى كل شيء وتخترق الصدور ولا ترى ولا يرى ما عليها، فإذا ما جثونا فليس مغربي في الشارع بجلبابه ذات اللون الناصع وطوقه المنضد وألوانه الزاهية، وهو يختال في مشيته ويصادف أول من يصادف هذا الشاب الشرقي صاحب الملابس الافرنجية الباريسية الصيفية - ما دمنا في فصل الصيف - حيث البنطلون الأبيض والصدريّة الزرقاء والنعل ذو اللونين،

فيلقي هذا الشاب نظرة ازدراء على هذا المغربي الذي ما يزال يعيش في العصور الماضية فلم يغير ملبسه، ولم تؤثر عليه المدنية بعد ما دام حاملا لهذا اللباس الذي مهما كان نافعا للصحة أو مناسباً للذوق فهو غير أوربي وليس هناك من قيمة لشيء شرقي في نظر الشرقي، فلنصبح أبناء العصر الحديث يجب أن نخلع عنا كل مظهر من مظاهرنا لندمج في الغرب وهو يأنف منا ويتعد عنا.

وتخرج كلمات من فم صاحبنا الشاب كلها ازدراء لرجلنا المغربي دون أن يكلف نفسه أن يتعلم عنه فربما لا ينقص عنه تفهما لروح العصر وتطورات الحياة، فكل ما هناك أن ملبسه غير أوربية وهو آت من بلاد يقال لها المغرب لا الغرب.

ويتخيل صاحبنا الشاب كأنما أصبح البون شاسعا بينه وبين هذا المغربي الساذج فيتابع سيره ويسرع في خطواته متطلعا إلى ملبسه التي هي على آخر (مودة) تلبس في الغرب وتزداد جثته عظمة أمام عينه إذ لا يرى بينه وبين المغربي كبير فرق.

ويمر فرد من العامة فيتطلع إلى صاحبنا المغربي فتراءى له صور عدة عن هذا الرجل، فتارة يخيل إليه في صورة ساحر يصير الحديد ذهباً وفي هذا غنى وطمع، وطورا يرى فيه زاهدا من عباد الله المختارين، فإذا ما تراجع بذاكرته إلى ما يطالعه في السنوات العشر الأخيرة خيل إليه المغربي في صورة ثائر لا يعبأ بالدماء وليس له من مستقر، وإنما هو من هؤلاء البدو الرحل فيتردد بين أن يطمع في سحرياته وبين أن يزوره تبركا بولي الله ثم يتراجع آخر الأمر خائفا من هذا المغربي، أما صاحبنا المغربي فيتابع سيره ويتحدث مرتفع الصوت غير ملتفت إلى من ينظر إليه وغير شاعر بهذه التصورات التي تختلج في تلك النفوس بل يتقدم إلى بائع فيحدثه بلهجة مغربية صميمة بسرعة واصطلاحات بلاده فلا يتفاهم معه إلا بالإشارة.

أما النساء المارات فيستغربن هذا الرجل ويتغامزن، وتشاء واحدة منهن أن تدعوه ليسحر، ويطول تشاورهن، بينما المغربي يخطو خطوات يبتعد بها عنهن، ولا ريب أن حديث

هذه الجماعة من النساء كان طول ذلك اليوم عن هذا المغربي ذي الجلباب الساحر الماهر، وما هو في الواقع إلا حاج أو سائح لا يعرف من كلمة السحر إلا ما أفهمه أنا وأنت. إن المشعوذين في الشرق عندما يريدون ثقة الناس بهم ثقة عمياء يزعمون أنهم مغاربة؛ فبلاد المغرب، في نظر العامة، عبارة عن مجموعة من الصور جمعت الغريب والمدهش، والجميل والقيبح، وحياة المغرب حياة عليها المسحة السحرية في كل مظاهرها. لعلمكم تستغربون هذه الظاهرة، فلنقف عندها قليلا، فالصفة البارزة التي يوصف بها المغربي في الوسط الشرقي هو أنه ساحر ماهر يستحضر الجن في كل لحظة ويناجيه، فلا يتأخر الجن عن مساعدته في الأرض أو في السماء، فإنك لا تكاد تهبط هذا المجتمع حتى تسمع أحاديث وحكايات عن أفراد ينسبون لأنفسهم الجنسية المغربية يلعبون دورا مهما في الحياة الاجتماعية بهذه البلاد، فيشعوزون أياما يربحون من ورائها أموالا باهضة، وما هم من السحرة في شيء بل حسبهم دقة ملاحظات وجواب في اللسان وتفهم لعقلية المخاطب.

ولنستمع إلى دور من الأدوار التي يقوم بها هؤلاء الأفراد باعتبارهم مغاربة. في أحد الأيام اشترى فرد شيئا من دكان فقدم لصاحبه قطعة من نقود ذهبية تساوي أضعاف ما اشترى ولم يهتم أن ينتظر للحصول على الباقية، بل تابع سيره، فتعجب صاحب الدكان من أمر هذا الرجل وتبعه على الاثر متسائلا عن عدم اهتمامه بنقوده الذهبية القيمة، فأجابه الرجل أن الباقية قسمتك وحظك، وليس ذلك إلا جزءا طفيفا مما يرزقنا الله من السماء؛ فاهتم صاحب الدكان بأمر هذا الرجل الغريب، ورجا منه أن يكون ضيفه الليلة، فامتنع صاحبنا المشعوذ، فألح الآخر في طلبه، وأخيرا قبل صاحبنا أن يذهب إلى بيت صاحب الدكان، فكان حديث هذا الأخير كله يرمي إلى تفهم مصدر ما له من نقود ذهبية لا قيمة لها في نظره، والآخر يحاول بدهاء أن يخفي ذلك عنه ليزيده رغبة، وأخيرا بعد إلحاح شديد يخبر صاحبنا المغربي التاجر بأنه استطاع أن يصل إلى

درجة عالية في علم الطبيعة وأنه بعمليات سحرية خاصة يصير الحديد والنحاس وما شابههما من المعادن ذهباً، فيتهلل وجه التاجر فرحاً وغبطة لكن صاحبنا المغربي يندم ندماً شديداً حيث يوهم الثاني أنه فضح سره ويتظاهر أنه يريد أن يغادر منزل مضيفه في الحال، بينما الآخر يزداد حرصاً عليه ورغبة في جلوسه حتى يقوم بعملية من عملياته في بيته، ويطول بينهما الجدال حيث يتظاهر صاحبنا المغربي بالكتمان، والآخر يشاء أن يستغنى بواسطة الساحر المغربي المزعوم الذي طالما سمع عن أبناء جنسه ما يحير الألباب، وأخيراً يرضى المغربي ادعاءً أن يكون منزل مضيفه ميداناً لصيرورة الحديد والنحاس ذهباً نضاراً، وبإشارة من هذا المغربي يجمع ما في البيت من قطع حديدية أو نحاسية وتشعل النيران، ويوضع جميع ذلك في أنية من حديد حيث يدوم لهيب النار مشتعلًا ثلاثة أيام متوالية، وفي غيبة من المضيف يفتح المغربي القدر ويذر على وجه الماء مسحوقاً أصفر في لون التبر، ثم يطفئ النار إلى أن يبرد القدر نهائياً ويفتح أمام الشخصين، وعندما يرى التاجر لون ذلك المسحوق على صحيفة الماء يخيل إليه أن الجميع أصبح ذهباً رناناً، لكن الآخر يظهر حزناً لا مزيد عليه وتألماً شديداً، فيسأله التاجر عن سبب حزنه وألمه فيفاجئه أن العملية قد نجحت نجاحاً تاماً لكن ... ولا يزيد شيئاً، فيتحير التاجر ويسأله لكن ما ذا؟ فيرد عليه المغربي أفكر فيما أعجز عنه وتعجز أنت عنه أيضاً، فالعملية نجحت لا ينقصها إلا مادة خاصة لا توجد في هذه البلاد، وتشتري بما لا يقل عن 200 ليرة عثمانية ذهبية (أى ما يزيد عن 22.000 فرنك) فيجيبه التاجر: الأمر هين، إن لدى ذلك المقدار وأستطيع أن أقدمه لك خدمة للمشروع فيسر صاحبنا المغربي، ويسرع الآخر إلى خزينته الحديدية ويقدم له المقدار، فيسافر الساحر الموهوم محاولاً شراء تلك المادة الموهومة بعد أن يضع القدر في مكان مغلق ويوصى صاحبه ألا تفتح مطلقاً خوفاً من فساد العملية السحرية الغريبة، ومرت الأيام والليالي تباعاً دون رجوعه، ولعل ذرة من الآمال ما زالت تخالج صاحبنا الشرقي كلما تذكر هذه الحادثة بالرغم من تصوره

أنها خدعة.

ولعلكم تستغربون هذه الحادثة وتظنونها خيالا، ولكن لو قضيتم بضعة أيام بالشرق العربي لتيقنتم أن الحادثة صورة مصغرة عما يتصور به المغربي في ذلك الوسط من دهاء وسحر، ولكي تزدادوا يقينا أصرح لكم أن مثل هذه الحادثة جرت بين مغربي وبين أمير تولى إمارة إحدى المقاطعات الشرقية بعد الحرب العظمى، وإن هذا الأمير قدم مقدارا عظيما من الليرات الذهبية في سبيل الحصول على الثورة من هذا الطريق.

والآن حان لي أن أنتقل إلى ناحية أخرى بعد أن أبدى ملاحظة ضمن تساؤل هو لو أوتى لمغربي بساحر من هؤلاء السحرة المشعوذين وطمع بالذهب الوهاج، فأنا شخصيا لا أتصوره ينخدع ، ودليلي الوحيد أن لا أثر لمثل هذه الخرافات في وسطنا، بينما المجتمعات العائلية في الشرق كثيرا ما تتحدث في هذا الموضوع باستغراب ونوع من الثقة في مقدورة المغربي السحرية.

وحسبنا حديثا عن السحر والسحرة الموهومين، فهكذا أستطيع أن أصور ما يتراءى للشرقي إذا ما وقعت عيناه على هذا الرجل ذي الجلباب الطويل والبلغة الصفراء، ومن هاته الصورة تدركون سمعة المغربي في ذلك الوسط الشرقي، فلننتقل إلى ناحية ثانية من الموضوع وهي كيف يتصور الشرقي بلاد المغرب.

أه... يا بلادي، إنك مهضومة الجانب حتى في بلاد تتحد معك في اللغة والدين والاتجاه إد تراءى لهم في صورة تتألمون إذا ما أدركتموها ، ولكن سيشعر المغربي المثقف بوخز في ضميره حيث لم يسع جديا في الدعاية لبلاده والإعلان عنها تلك البلاد ذات التاريخ المجيد والحضارة المتأصلة.

فنحن المدنيين في نظر أغلبية السكان هناك نعيش في خيام وحظنا من الحضارة حظ البدو في بلاد لا أثر للجمال الطبيعي فيها، فأين قصورنا الفخمة، وأين فننا المعماري المغربي الجميل، وأين مؤرخونا، وأين علماءنا، وأين هذه الآثار الخالدة التي ورثناها عن الموحدین

والمرينيين والسعديين والعلويين؟ تلك آثار لا يتصور الشرقيون لها وجودا في بلاد الأمويين أو بلاد العباسيين.

ولكن ألا ترون أنها في بلادنا أيضا لا زالت ملفوفة في أكفان الموت، مجهولة الموضع والقيمة، وشبابنا هذا المثقف شاء البعض منهم اليوم أن لا يعترف بمجدها. وهكذا سوف لا نكون قد حافظنا على تراثنا المجيد، بل ألقينا الكل في زاوية المهملات، ولم نتصل بالماضي لنعمل بروح الأمل في المستقبل، ونجتاز عقبة الحاضر اجتياز المفتخر بما لديه من عناصر المدنية التي نستطيع - وخصوصا في الناحية الاجتماعية والفنية - أن نسميها حلقة وصل بين مدينة العصور الوسطى التي ازدهرت على الضفة من البحر المتوسط ومدنية اليوم التي تزدهر على الضفة الأخرى من ذلك البحر، ومع ذلك فنحن كلما ابتعدنا عن هذه البلاد المغربية ازدادت صورتنا في ذهنية القوم هناك اضطرابا وتشويها.

أما حياتنا الفنية فلا توجد عنها صورة تامة التكوين لدى إخواننا الشرقيين وهذه الناحية من حياتنا مجهولة تمام الجهل عندنا نحن المغاربة أيضا، فلا نتصل بها اتصال تذوق وتمتع بجمالها، بل اتصال ممارسة أو اتصال عادة، وكل ما يعلم الشرقيون في مصر عن حياتنا الفنية خطوطا من صورة عن الموسيقى المغربية حيث استمع الهاوون لهذا الفن الجميل إلى أدوار قام بها الوفد المغربي في مؤتمر الموسيقى الذي عقد منذ سنتين في القاهرة، ويسوؤني أن أعلن أن تلك الصورة مشوهة لا تناسب مطلقا ماضي الموسيقى المغربية الأندلسية الجميلة، بل لا تناسب حتى هذه اليقظة الفنية والعلمية التي بدأت تدب من جديد في حياتنا الموسيقية.

وما دمت في عرض الصور التي تترأى للشرقيين عن المغرب وعن المغربي فمن واجبي أن أشير في ختام حديث الليلة إلى هذا العطف الأخوي الذي بدأ المغربي يشعر به عندما يجالس المثقفين الشرقيين، ذلك العطف الذي قوت جذوره العاطفة الوطنية ووحدة

الاتجاه الذي ترمي إليه كل الشعوب العربية في الآونة الأخيرة، وإن من واجبي أيضا أن أثني الثناء العاطر على رجال الصحافة العربية لما ينشرونه عن المغرب وعن حركته ونهضته وتفاؤلهم بمستقبله، وأرجو أن يعمل أبناء المغرب على وصل بلادهم بالمجموعة العربية التي يعلق عليها الأمل في أن تأخذ بيد الحضارة في المستقبل القريب، وتتجه بها نحو الصلاح والخير الإنساني في أسمى مظاهره، ذلك الوصل الذي تتلاشى معه هذه الصورة المتقدمة المشوهة التي يرى بها المغرب والمغربي في وسط الشرق العربي.

وكلمة ختامية في سطور آتي بها وأفارق المنصة وهي أنني لم أذكر نصا لأستدل به على هاته الصورة التي قدمتها عن المغرب، والسبب في ذلك أنه لم يؤلف في النهضة الحديثة أى مؤلف عربي عن المغرب، ولم تنشر مقالة بأقلام شرقية عن ناحية من نواحي المغرب الاجتماعية أو الفنية، وإنما ما ذكرت ليس إلا نتيجة مشاهدات وملاحظات أدركتها أثناء إقامتي بالشرق العربي، فالمعذرة إذن أيها الإخوان.